حـــــوارات

حوار مع عمر الشارني حول رينيه ديكارت: حديث الطريقة(*)

أجرى الحوار سعيد بوخليط(**)

باحث من المغرب.

توطئة

صدر عن المنظمة العربية للترجمة للأكاديمي والجامعي التونسي عمر الشارني نسخة ثانية (مزيدة ومنقحة) من ترجمته الشهيرة لإحدى مرجعيات الفكر الإنساني الصميمية، مفهوماً ومنهجاً، أقصد بذلك عمل ديكارت: **حديث الطريقة** *(Discours de la méthode)* عام ٢٠٠٨.

تابع عمر الشارني دراساته العليا في جامعتي تونس والسوربون، وكذا المدرسة العليا «Saint-claud» في باريس. عاد إلى تونس مدرّساً للفلسفة في مجموعة من مؤسساتها، بين عامي ١٩٧٢ و١٩٧٤. وهي الفترة نفسها التي اعتقل فيها وتمّ تقديمه إلى محكمة أمن الدولة بعد اتهامه بالانتماء إلى تنظيم غير شرعي. وقد حُكم عليه بسنة ونصف غير نافذة، مع طرده من سلك الوظيفة العمومية. وبالتالي، جرّد من منصبه كأستاذ للفلسفة. بعدها، شغل وظائف مؤقتة باعتباره اختصاصياً نفسياً واجتماعياً إلى غاية سنة ١٩٨١. ثم عاد مرة أخرى إلى تلقين الفلسفة في الثانويات التونسية، حتى انتقاله إلى مدينة نواكشوط الموريتانية عام ١٩٨٢ ومكوثه فيها ثلاث سنوات كمؤطر فلسفي في المدرسة العليا. وقد دافع في بداية التسعينيات، وبالضبط عام ١٩٩٣، عن أطروحته لنيل الدكتوراه في مدرجات جامعة باريس الأولى، وحصل على أهلية الإشراف بها. وقد شغل الشارني منصب رئيس لقسم الفلسفة في الجامعة التونسية بين عامي ١٩٨٥ و١٩٩٨. ولأسباب موضوعية، مرتبطة أساساً بانتفاء كلّي لمعطيات جيدة وسليمة، قد تمثل تربة خصبة ومولدة لجينات مناخ علمي ينتقل بالمنظومة المعرفية العربية إلى عصر العلم والحرية بكل ما يحمله المفهومان من دلالات قصوى، ويخرجهما من الرداءة والبدائية؛ أقول: لتلك الأسباب، شدّ صاحبنا الرحيل ثانية إلى فرنسا، ليعيش في عاصمة الأنوار ملقناً لمبادئ الفلسفة في جامعتها «Clermont-Ferrand».

(*) رينيه ديكارت، **حديث الطريقة**، ترجمة وشرح وتعليق عمر الشارني (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨).

(**) saidboukhlet@hotmail.com.

كتب الشارني مؤلفات عديدة بالفرنسية والعربية، وقد توزّعت بين الإبيستيمولوجيا، وتاريخ الفلسفة، والأدب. كما فكّك نصوص كلّ من: ديكارت، جورج بوليتزر، كلود برنار، بوفون، ديدرو، روسو... الفارابي، الطيب صالح، توفيق الحكيم، العروي، أحلام مستغانمي... إلخ.

بمناسبة، إذن، قراءته الجديدة لديكارت، سعيت إلى مجالسة الرجل قصد استكشاف ملامح أخرى من هذا المشروع العلمي الرصين واستحضار بعض مساعيه الحثيثة، وكان الحوار التالي:

١ ـ هل نبدأ من النهاية: لماذا ديكارت اليوم؟

في الواقع، ليس ديكارت اليوم، ولا البارحة. إنه، لكل الأزمنة. ليس للفكر من حدود، سواء جغرافية أو تاريخية. إنه خاصية إنسانية، تستخدمه باعتباره ضرورة لها، والبشرية في حاجة دائمة إلى التفكير. الإنسان كائن مفكّر، يتميز من الحيوان اللامُفكر (تقول العرب: غير الناطق). نشير إلى هذا، ونحن نستحضر وضعية شعوبنا العربية. أعتقد أن الجميع متفق على حاجتنا اليوم إلى التفكير أكثر من أي وقت مضى. بالتأكيد، نفتقد جوهرياً الفكر. والحال، إن ديكارت لا يعتبر فقط مجرد مفكّر كبير، بل أحد أعتى المؤسسين للحداثة، إن لم يكن وحده. ما يميّز شعوبنا العربية هو عجزها عن الولوج إلى الحداثة. تحكمنا دائماً معايير الفكر القروسطي. ما زلنا نحيا في القرن الوسيط، نواصل الإيمان، مثل أرسطو والفارابي وابن رشد، بأن «الطبيعة لا تصنع الأشياء عبثاً». إنها تخضع لإرشاد وتوجيه مجموعة عقول، يتواجد الله على رأسها، حيث انبعث المجتمع كما هو من أيادي الخالق، وكل ما يحدث لنا يأتي من السماء، فقوى خفية تمارس تأثيرها في حركاتنا... إلخ. إلا أن ديكارت تمكّن بالميتافيزيقا والعلم من وضع حدّ لعدد كبير من هاته المعتقدات، إن لم يكن أغلبها. قلّص من سلطة الله، ووضع الإنسان في مواجهة مسؤولياته. رسم بفكره وسلوكه خطاطة عقلانية للطبيعة، مبيّناً كيفيات السيطرة عليها. إجمالاً، لقد أسس فلسفة جديدة تعطي الإنسان إمكانية السيادة على نفسه والعالم.

فلسفة ديكارت هي، إذن، فلسفة لحرية الإنسان، توخّت تخليص العقل من الظنون والأوهام، وكذا الأساطير، التي تستعبده. بذلك، استطاع الإنسان «الغربي» حينما استوعبه، تكسير سطوة القوى التي كانت تستحوذ عليه، والاندفاع أيضاً نحو اكتشاف العالم. تمثل شعوبنا العربية ضحية لغزواته. حتماً، لو توفرنا في القرن السابع عشر على مفكّرين من طينة ديكارت، غاليلي، ليبنيتز، سبينوزا، نيوتن، أو هوبس، وكذا معاصريهم ومن تبعهم، لكان العرب اليوم من بين أسياد الأرض. مع ذلك، من المحتمل دائماً استيعاب هذه الثقافة التي تبقى خاصية إنسانية، وليست ملكاً لأي شخص. طبعاً، إذا تأتّى لنا يوماً ما ذلك بالترجمة والتعليم وكذا مجموعة أعمال تبثّ مثل هذه الأفكار، فسنحقق خطوة مصيرية في طريق حريتنا. باختصار، مثل هذا المشروع شكّل خلفية للمبدأ الذي حكم تشييد جامعاتنا غداة استقلال بلداننا.

٢ ـ نلتمس منكم إحاطتنا بمختلف السياقات التاريخية لترجمتكم: الأسباب؟ الغايات؟

في الواقع، ترجمتي الحالية التأويلية والتفسيرية لكتاب ديكارت: **حديث الطريقة** *(Discours de la méthode)*، الصادرة في بيروت، هي الطبعة الثانية، بعد إضافة مجموعة من التصحيحات والتعديلات والتنقيحات، للترجمة الأولى التي ظهرت في تونس سنة ١٩٨٧. اشتغال، أنجزت أهم مراحله الأساسية، بين فضاءات هذه الساحرة «نواكشوط» (عاصمة موريتانيا)، التي ألقبها بـ «وردة الصحراء». مدينة، قريبة جداً من قلبي. هناك، حصلت لأول مرة على منصب للتدريس الجامعي بعد سنوات طويلة من العطالة والمحن، جراء اعتقالي واقتيادي إلى محكمة أمن الدولة في تونس، ثم فصلي من التدريس صحبة زوجتي ورفاق آخرين. يجب التأكيد أن محاكمتنا لم تكن الأولى ولا الأخيرة ضد حركة اليسار. لقد استمر القمع على الأقل عشرين سنة. لكن، حينما أدركت السلطة قصورها عن تحقيق أهدافها بالردع البوليسي فقط، حتى ولو دفعت به إلى أقصى مداه، التجأت إلى التضليل الأيديولوجي. أقدمت على تعريب المواد المُصنفة بكونها مُهدّمة، حيث نجد الفلسفة في مقدمتها. من هنا رأيت الخطر الكبير الذي يترصّد بلدي، وكذا باقي البلدان العربية، وخاصة المغاربية منها. أدركت بسرعة أن المعركة التي نقودها ضد القوى الرجعية، وقد غيّرت من تكتيكاتها، هي طويلة وصعبة جداً. نعرف الآن: تلقّي أغلب الحكومات العربية، إن لم يكن جلّها، للأوامر الأمريكية كي ينبتوا في أوطاننا مجموعات إسلامية ومساعدتهم على التجذّر سعياً إلى القضاء على الماركسية الصاعدة. إذن، من أجل مقاومة هذا الوباء، وأقدم في الآن نفسه إلى رفاقي بعض أدوات العمل، انكببت على الترجمة، ولو كنت وقتها دون وظيفة تخوّل لي دخلاً قاراً. أمر انطبق كذلك على زوجتي، خاصة مع المطاردة الدائمة للبوليس السياسي أينما ارتحلنا وعثرنا على شغل.

في إطار هذا السياق، تتموقع ترجماتي، ولا سيما: **حديث الطريقة** *(Discours de la méthode)*، الذي استغرق تقريبا مدة زمانية بلغت خمس سنوات. فقد أجبرت غير مرة على وقف مسار الترجمة، تحت وطأة البحث في كل مكان عن مورد اقتصادي يوفّر لي ولأسرتي أسباب البقاء. لكن ديكارت، عاش معي أيضاً، آخر سنوات بطالتي بعد التحاقي بأقسام التعليم العالي، أستاذاً مساعداً بين مدرجات المدرسة العليا لنواكشوط.

٣ ـ بحسب معرفتكم، هل توجد ترجمات عربية أخرى لكتاب ديكارت؟

نعم! أشير إلى اثنتين مشهورتين. الأحدث، هي التي اشتغلت عليها شارحاً ومعلقاً. بمعنى، تعقبتها خطوة خطوة، محاوراً ودارساً. كما أنني «أنقّح» كلما فرض المقام ذلك. أستحضر ترجمة اللبناني جميل صليبا الصادرة في نهاية سنوات الخمسينيات من القرن الماضي في بيروت تحت إشراف اليونسكو. أذكر كذلك، ترجمة أقدم، ظهرت في أواخر سنوات الثلاثينيات في القاهرة من قبل أحد المصريين وكان تلميذاً لأندري لالاند (André Lalande). للأسف، لم أعلم بهذه الحقيقة إلا إبان المراحل الأخيرة لعملي. لذا، أتأسف نظراً إلى عدم تمكّني من استثمار مضامينها في ما يتعلق بالطبعة الجديدة، فثمة نسخة وحيدة فوق رفوف المكتبة الوطنية في تونس، بينما كنت أهيئ هذا العمل في باريس.

٤ ـ من وجهة نظر إبيستيمولوجية، وبالقياس إلى مشروعكم العلمي، أين تضعون عملكم الحالي؟ وكذا ترجماتكم بصفة عامة؟

إنه سؤال مهم! والجواب عنه ليس سهلاً! يتمثل أولاً مشروعي الكبير، المستأثر بكل مجهوداتي، في فهم الحداثة، أي ما نسميه «العصر الكلاسيكي» للقرنين السابع عشر والثامن عشر، وهي التي صنعت، كما تعرفون، أوروبا والعالم الحالي. هنا، يتمركز لبّ أعمالي (مؤلفات ومقالات) الصادرة في تونس، وبيروت، وباريس، ثم نيويورك، باللغتين العربية والفرنسية، أو مُترجمة إلى الإنكليزية. ستقول لي: لماذا؟ سأجيبك: أولاً، بالنسبة إلي، وكذا شعبي، إنها القضية الكبرى لشعوبنا العربية، كما قلت لك منذ قليل، كوننا أضعنا الحداثة، وبالتالي أصبحنا عرضة لكل المصائب. تتفاعل مجهوداتي وفق مسارين متكاملين: تقريب الحداثة منا، ثم تقريبنا من الحداثة. تطمح ترجماتي إلى جعل الكتّاب المعاصرين يتكلمون العربية، وحينما يهاجرون يفعلون ذلك جيداً! يتعلق الأمر، إذن، بوضع هذه الثقافة في متناول طلبتنا وكل من بإمكانه الاطلاع على لغتنا.

بمعنى مغاير، فعلى الرغم من توجّه أبحاثي الأكاديمية إلى متخصّصين في كل العالم، ابتغيت أن أظهر لزملائي قدرتنا نحن العرب على «إضافة شيء ما» إلى هذا التراث، الذي يمكننا استيعابه تماماً مثل الأوروبيين، وأحيانا أفضل من بعضهم أيضاً. المنجزات بيّنت أن كونك تونسي، ولدت وتربيت وسط أفراد أسرة من الفلاحين على تخوم الحدود بين تونس والجزائر، فذلك لا يحول دون فهم ديكارت، ديدرو (Diderot)، هالير (Haller)، بوفون (Buffon)، شارل بوني (Bonnet)، أو روسو (Rousseau)...، أفضل من الذين فتحوا أعينهم وترعرعوا في جنيف، ثم باريس أو برلين. أريد أن أظهر قيمة انتفاء كل الحدود أمام الفكر، وأن الفكر إما إنساني أو لا! أمثل بهاته المشاريع التي أتبناها إلى جانب زملاء عرب آخرين، محور طليعة شعوبنا العربية نحو الثقافة الحديثة والمعاصرة. نريد، بإنتاجنا وهجرتنا، إعطاء الدليل على كونية الفكر الإنساني. هل سننجح؟ هل سنخفق؟ المستقبل وحده يحدّد الأمر. لكن في جميع الأحوال، سنحاول...

لكن مؤخراً، اكتشفت جانباً آخر، أنكب عليه حالياً: عولمة الثقافة العربية الكلاسيكية، وبشكل خاص الفلسفة. فهذا المكوّن من تراثنا عليه أيضاً تعضيد وتقوية مشروعنا. حتى وقتنا الحاضر، أشرف على هذا الميدان مجموعة من المستشرقين ظلّت معرفتهم باللغة العربية قاصرة وغير كافية، أو بعض الباحثين العرب المفتقدين للتكوين الفلسفي. وبالتالي، لم يروا فيه إلا صدى للفلسفة اليونانية: أنا الآن بصدد كتابة مؤلف عن الفارابي، حيث وقفت حقاً على إمكانية مقاربته، مثل المفكّرين المعاصرين الذين أشتغل عليهم. طور الفارابي منظومة فكرية أصيلة ومنسجمة، يمكنني عبرها وضعه بسهولة ضمن تاريخ الأفكار، وأبرز ليس فقط أنه «ذهب أبعد» من أفلاطون، وأرسطو، وأفلوطين، بل أيضا مهّد السبيل لديكارت، ثم ليبنيتز أو سبينوزا. معضلة أغلب الذين قاربوا هذه الفلسفة هي افتقادهم ثقافة مؤهلة. وبالتالي، لم يتمثلوا غير جهلهم، ومن ثم بدت عقيمة وغير ذات فائدة.

٥ ـ ألا ترون معي أن الفكر العربي يزداد كل يوم ابتعاداً عن أسس الحداثة؟

ربما! لكن كل شيء يرتبط بما نصطلح عليه «فكراً عربياً»، إلّا أنني لا أقتنع بوجود فكر عربي وحيد. تمثلت قضية العرب الكبرى، منذ «الاستقلالات» في تضارب «أفكارهم». كان لهم أساساً نمطان من التفكير يعارض أحدهما الآخر كلياً. أقصد بـ «فكر» مفهوماً متماسكاً تجاه العالم. كيفية إدراك الأشياء، تفسيرها، والتصرف في ضوئها في الحياة اليومية. إذا طرحت عل شخص ما السؤال التالي في يوم ممطر: لماذا يهطل المطر؟ فالجواب الذي سيقدمه إليك لن يؤسس فكراً، لكنه ينهض حتماً على «فكر». للتبسيط إلى أقصى حدّ، نقول إن هذا التأويل يقوم على جدولين: يتضمن **الأول** الله والأرواح، في حين ينطوي **الثاني** على الطبيعة وقواها، بمعنى علاقات الفعل والتفاعل بين الظواهر. إنه وضع يشير إلى وجود «فكر»، أي منظومة نسقية تفسر زُمرة (نوعاً ما كبيرة) وقائع وظواهر. إذا أخذت ثانية مثال المطر، فقد نتبنى اتجاهين تفسيريين: أحدهما طبيعي (من خلال المعطيات المناخية)، والآخر فوق طبيعي (نتيجة تدخل الأرواح، وكذا القوة الإلهية). عاشت أوروبا صراعاً تاريخياً بين النسقين، طيلة الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى الثامن عشر. ميزته سمة اضطهاد العلماء والفلاسفة من طرف الكنيسة المسيحية والنظم الملكية التي كانت تحت الهيمنة الأيديولوجية للكنيسة. يكفي تذكّر العلماء والفلاسفة الذين تعرّضوا للمضايقات بدرجات مختلفة، بلغت حدّ إحراقهم أحياء. عشرات أمهات الكتب منعت وسحبت من التداول، بل حتى تمّ إشعال النار فيها وسط الساحات العمومية.

أخيراً، مع الثورة الفرنسية انتصر التفكير العلمي والعقلاني على الفكر اللاهوتي. ثم اكتمل انتصاره النهائي مع توالي القرون، سواء داخل الدوائر العلمية أو في الحياة العمومية، بينما الأمر عندنا مختلف، فقد استمر هذان «الفكران» يتقاسمان عقولنا جنباً إلى جنب، يسود أحدهما الجامعات، في حين نعثر على الثاني في المقاهي (أحيل على أمثلة مجازية أو «رمزية»). ذاك هو حال الفكر العربي، الذي ابتعد عن الحداثة، «فكر المقهى»، بمعنى ثانٍ لم تكن له أية صلة بالحداثة. الشيء الذي يصعب معه أصلاً قياس درجات تحوّله. أما فكر الجامعة، فقد ولد ونشأ بين سياقات الحداثة. لذا، توجد إمكانية لتلمّس الانزياح والوقوف على تحققاته. لكن من الضروري الإشارة إلى أن بلداننا، خاصة المغاربية، قد أدت ثمناً غالياً في أفق إقامة نظام تعليمي حديث، سعياً نحو «جلب» ومراكمة الفكر المعاصر. لقد أرسلوا الطلبة إلى أوروبا، كما استدعوا مجموعة من الأوروبيين للتدريس عندهم. كانت هناك تبادلات في إطار ما نسميه بـ «التبادل التقني والثقافي». كل هاته المجهودات توخّت تعويض «فكر المقهى» بـ «فكر الجامعة». يجب الاعتراف بأن ذلك أثمر بعض النجاح إلى غاية سنوات السبعينيات، لكننا سنلاحظ تدهور التعليم منذ الثمانينيات. النتيجة، نكتشف اليوم، تخلي فئات متعلمة واسعة من تلاميذ وطلبة، وكذا مدرّسين، عن الفكر الحديث، أي فكر «الجامعة»، والاستسلام لـ «فكر المقاهي».

٦ ـ هل جعل ديكارت يتكلم العربية، مجرد عمل بسيط للترجمة أم أن الأمر يحتّم مشروعاً اجتماعياً وثقافياً؟

لا تعارض بين المسارين. يمكننا دائماً البدء بعمل بسيط: عمل الترجمة، لكن السياقات التاريخية قد تحوّل هذا العمل إلى مشروع كبير بأبعاد أكثر أهمية. من الواجب على المفكّر إنجاز عمله وتفعيل روافد نتاجه، بعده يصنع التاريخ من ذلك ما يريد! هل ظنّ أرسطو أنه سيهيمن على الفكر الإنساني عشرة قرون؟ وهل تخيّل روسو تبجيل الثورة له؟! بالتأكيد، كل واحد يريد أن يصير لعمله أثر حاسم ومفيد لشخص أو شيء ما، لا يمكنه فعل أكثر من ذلك، حتى ولو كان معتقداً العكس، وأن عمله لا يجدي، فهو ينطوي على قوة في ذاته قد تدفعه إلى القيام بخطواته: يؤسس، ثم يركن إلى الصمت! فالمفكّر ماهية لوعيه وواجبه. حلمه، إتمام واجبه، وأن يعيش في انسجام مع ضميره، أو كما يقول ديدرو (Diderot) في صيغة جميلة: (Nous ne faisons que passer !). المهم، العمل على جعل هذا الانتقال مثمراً. كانت آخر عبارة لكانط (Kant): «C'était bien».

لقد قضى الرجل حياته كلها وهو يشتغل. الجيران يضبطون ساعاتهم بناء على وقت جولته اليومية. كان يدرك أنه بصدد القيام بـ «ثورة كوبرنيكية» (المفهوم له) في ميدان الميتافيزيقا؛ ثورة ستمرّ بشكل عابر في عصره، فقد حوربت وانتقدت بقوة. قد نعدّد أمثلة المفكّرين الذي عاشوا الشقاء في أثناء حياتهم: لامارك (Lamarck)، وبالأخص روسو، وكذا آخرين لم يتحقق لهم المجد إلا بعد رحيلهم. علينا، نحن العرب، اقتفاء نماذجهم والاشتغال وفق مرجعيات الزهد والنزاهة، كما يحتّم ذلك الضمير والواجب، وليس جرياً وراء التباهي والغنى، أو وصولاً إلى سلطة سياسية.

٧ ـ ما السياق المجتمعي لتعبيركم «عمدت إلى»؟

ببساطة، أستحضر بتلك الصيغة السياق السياسي والاجتماعي، الذي حكم عملية تعريب بعض المواد في بلداننا، من بينها الفلسفة. أريد فضح البعد الاعتباطي والميزة الارتجالية لهذه الخطوة. في بلدي تونس، تعريب مادة الفلسفة في الثانوية قرّرته السلطة السياسية بين شهري أيار/مايو وحزيران/يونيو، ثم طبقته في شهر تشرين الأول/أكتوبر الموالي، هكذا، دون دراسة سابقة؛ وقد عارضت الأغلبية الساحقة من المدرّسين، خاصة أفضلهم، عشوائية المسار، ووقفوا موقفاً قوياً في مواجهة الأمر. لم يخضعوا لتكوين بيداغوجي بهذا الخصوص، أو توفّروا على أية أداة للاشتغال، سوى كتاب مدرسي كان في طور التهيئة، بل لا يعلمون أيضاً إن كان سيرى النور أم لا... إلخ. إن قراراً بمثل هذه الخطورة، تجلّت كارثيته مع مرور الأيام، اتخذته السلطة بحسب الهوى، أو كما يقول الفرنسيون: «Un coup de tête» ولاعتبارات سياسية ضيقة. غير أن مشروعاً من هذا القبيل نصفه بالتاريخي يتطلب تحضيراً لسنوات عديدة، وتكويناً تربوياً للمدرّسين والتلاميذ... إلخ. تكمن مأساتنا في الهيمنة المطلقة لسلطتنا السياسية، بحيث تتلاعب بالجميع وتتدخل في كل شيء.

٨ ـ شكّل، إذن، تعريب الفلسفة إخفاقاً وفشلاً على مستوى طريق الحداثة؟

طبعاً! يجب عدم إغفال أن تدريس الفلسفة في الثانوية تبلور في بلد مثل فرنسا من قبل سلطة تنتسب إلى الثورة، تريد جعل هذا التعليم وسيلة وأداة تستهدف خلق مواطنين للمستقبل، قبل كونهم فلاسفة! وهو مضمون المنظومة التعليمية الفرنسية إلى يومنا هذا. إنه تعليم، كما هو معلوم جداً، يعالج ويقارب أسئلة عامة، يفترض في الجميع أن تكون له فكرة حولها، مثل قضايا: العدالة، الأسرة، الاعتقاد، الدولة... إنه لا يلقّن نظرية رسمية، أو جواباً عن هذه المحاور التي تمسّ الجميع، ولا يقول هذا جيد، والآخر سيىء! غايته فقط طرح وجهات نظر متعددة تتعلق بكل سؤال، مما يساعد التلاميذ على التفكير والحيلولة دون تموضعهم داخل هذا الاتجاه أو ذاك. دون شك، حينما نربط هذا التعليم بلغة حديثة، مثل الفرنسية، فإننا نقف عبرها على ما لا ينتهي من الكتب المختصرة والدراسات، يجدها التلاميذ في متناولهم باقتنائها أو استعارتها من مختلف المكتبات. هكذا يتعوّد التلاميذ على القراءة، والتأمل مع كبار المفكّرين، وهم يضعون اليد على ملخصات ومقاطع لهؤلاء، هيأتها بطريقة سهلة الكتب المدرسية، وكذا الإصدارات المتواترة للأعمال التأسيسية. لكن، حينما نغيّر اللغة، نفتقد كلياً هذا المرتكز البيداغوجي، ثم يصبح التعليم فارغاً وعقيماً. إذن، قبل الشروع في عملية التعريب، كان من اللازم تحضير هذه الأداة وتعبيد طريق السند المنهجي. لقد بذل بعض الزملاء كل ما في وسعهم، من أجل توفير ترجمات وأدوات للاشتغال، للمدرّسين والتلاميذ، وكذا الطلبة، بعد حدسهم للأخطار المحدقة بواقعنا التعليمي. لكننا نبدو كما لو أردنا تعويض المطر بمرشة.

٩ ـ هل تكون الترجمة بذلك وسيلة لمناهضة القوى المحافظة؟

بكل تأكيد! لكن تجب الإشارة أولاً، الترجمة هي قبل ذلك غاية في ذاتها. كل البلدان تترجم، قدر ما يمكنها إلى لغتها. على سبيل الذكر، قرأت مؤخراً أن بلداً مثل إسبانيا يترجم وحده، كل سنة، مقدار ما تقوم به البلدان العربية مجتمعة! هكذا، يمكن لبلد ما الخروج من عزلته، و«الانفتاح على العالم»، كما نقول. لنأخذ نموذج جان ماري لوكليزيو (J.M.G. Le Clézio) الفائز بجائزة نوبل للأدب سنة ٢٠٠٨، إذ تترجم مؤلفاته حالياً إلى جميع اللغات. إنه أديب منا، ينتمي إلينا، فقد ولد وشبّ في أفريقيا يدافع عن أفريقيته. عاشق للصحراء ومتيّم بها، كرس إحدى أجمل رواياته المعنونة بـ: «الصحراء» (Désert) للصحراء الغربية. إنه عمل يستحق الترجمة فوراً إلى اللغة العربية.

بالنسبة إلى وضعيتنا، الترجمة حيوية بالنظر إلى ضعف إنتاجنا الفكري. تحتل القوى المحافظة كل بلدان العالم وقد أفرزتها جلّ الحقب، موظفة الجهل والإطراء على الوجدان الوطني المتطرف، الذي تزداد معه حدّة التعصب والشوفينية والفاشية، أو باختصار، كل القوى «التي تجرّ إلى الوراء»، مانعة بذلك شعوبها من التقدم والتطور. نضيف، من ناحية ثانية، أننا لسنا أول من سيترجم. فازدهار الثقافة العربية الكلاسيكية، بين القرنين الرابع والعاشر، ارتكز، كما يعلم الجميع، على تشييد بيت الحكمة، كمؤسسة للترجمة لمعت داخلها

أسماء، مثل حنين بن إسحاق؛ مُنشأة، خوّلت إمكانية استيراد الفلسفة والعلم من اليونان والهند. لقد قيل دائماً إن مصدر ظهورها يعود إلى حلم للمأمون التقى فيه أرسطو... إلخ. أما التأويل الآخر، فهو أكثر احتمالاً ومعقولية، يشير إلى تبنّي الخليفة الكبير لمثل هذا المشروع الضخم في أفق توطيد ومراكمة ثقافة عقلانية تناهض الغنوصية والتصوّف، المهدّدين بقوة لعرشه. اليوم، نصنع الشيء نفسه بوسائل أقل، فهل يتكرّر التاريخ؟ ربما، لكن في جميع الأحوال، ليس بالطريقة ذاتها.

١٠ ـ أين تضعون دائماً كتابكم السابق عن «الذات المحاصرة» (الصادر عن: L'Harmattan 2004)، والذي تناولت مضامينه قيمة الهجرة في الأدب العربي المعاصر عبر توظيف نماذج: توفيق الحكيم، الطيب صالح، أحلام مستغانمي؟

أقول أولاً، إنه يسكن قلبي! بين ثنايا عشقي للأدب العربي، الذي لم أنقطع عنه منذ طفولتي (أخبرك بين قوسين أن ترجمته الإنكليزية قد صدرت منذ سنتين في مدينة فيلاديفيا (Philadelphie)). ثم أضيف أنه يندرج حقاً ضمن هذا المجهود لتحديث الثقافة العربية، حيث بيّنت في ما أظن وجود نوع من «تطور الوعي»، ابتداء من الحكيم، ثم الطيب صالح، وأحلام مستغانمي. لا شك في أنني أظهرت أن مستغانمي تجسد معطيات كاتب معاصر حقاً، في نطاق كونها تضعنا أمام مسؤولياتنا. ستلاحظ توظيفي لكلمة «مسؤولية» بخصوص ديكارت، ثم بزخم أكثر مع ديدرو وروسو، وكذا الفلاسفة الموسوعيين الآخرين الذين كانوا وراء الثورة الفرنسية. في الواقع، المفكّر الحقيقي هو من ينتصب واقفاً أمام ثقافته، يضعها أمام مهامها ويحاسبها باسم الإنسان.

١١ ـ ماذا يعني ذلك؟

أن يخاطبها بصيغة كهاته: «آه! ثقافتي. أنت التي أحب، ماذا تحملين للإنسانية؟» أو، إذا أردت، قد يطرح التساؤل بصيغة مختلفة: «آه، ثقافتي! بأي شكل تجعلين منا بشراً؟».

١٢ ـ سؤال أخير: انطلاقاً من الجرائم الوحشية الإسرائيلية الأخيرة في قطاع غزة، وقياساً لسجل دموي ضخم، هل تتخيلون للعرب من مستقبل؟

بالطبع، يملكون مستقبلاً! لكن القضية بأكملها تتمثل في معرفة ماذا سيكون، وكيف سيكون؟! الشيء الثابت، ارتباط هذا «المستقبل» بالحاضر، قدر تعلق حاضرنا بماضينا. ما نعيشه اليوم، مثلاً، يعود بنتائجه إلى هزيمة ١٩٦٧. لنفترض العكس، إذن، ماذا لو قُدّ للعرب الانتصار في تلك الحرب. كيف ستكون وضعيتنا اليوم؟ بالتأكيد، على شاكلة مختلفة! بناء عليه، يمكننا القول إن مستقبل العرب، في طور التشكّل انطلاقاً من حاضرهم. وبالتالي، ما وقع في غزة سيساهم في هذا المسار. لكن، بما أن الأسلحة تقتل حالياً، فلنحاول سريعاً القيام بخلاصة موجزة.

العنصر الأول، في رأيي، يسترعي الانتباه: لقد اعتقد الجميع أن إسرائيل ستسحق المقاومة خلال بضعة أيام. لكن بعد مرور ثلاثة أسابيع من القصف الأكثر عنفاً ووحشية، لاحظنا بقاء المقاومة صامدة، متوعّدة كل لحظة باستئناف القتال ثانية. لقد «قبلت» إسرائيل وقفاً لإطلاق النار دون أن تحقق أي شيء، بل على النقيض، أسابيع الحرب الثلاثة جلبت لها إدانة تقريباً من العالم بأكمله. تعتبر إسرائيل حالياً أكبر خاسر في هذه الحرب، للمرة الثانية، بعد آب/أغسطس ٢٠٠٦. حتى ولو لم تتعرض لهزيمة نكراء، فقد عاشت إخفاقاً عسكرياً. يبقى، إذن، استخلاص النتائج السياسية التي ستظهر على المدى البعيد.

إذا التفتنا نحو الجانب العربي، سنرى أن أكبر خاسر هو السلطة الفلسطينية. لم يكن من اللياقة مطلقاً إدانة رئيسها للمقاومة (قرأت في هذا الباب جواباً ممتازاً لعبد الباري عطوان في جريدة **القدس**). عوض توجيه اللوم إلى المقاومة وإطلاق النار على الجماهير الفلسطينية المتظاهرة، وهو ما يعتبر أكثر فظاعة، كان من الصائب والمجدي سياسياً تحويل هاته السلطة لكل فلسطين إلى حالة حرب، واستئناف الاتصالات مجدداً مع المقاومة في غزة. إنها فرصة ذهبية، وأقل ما يمكن التقاطه في سبيل تعزيز صف الوحدة الوطنية وتقويته. ذلك ما كان سيقوم به ياسر عرفات دون شك، وهو الذي فعل كل ما بوسعه كي لا تضع المقاومة أسلحتها. لقد تحمّل كثيراً إلى غاية يوم رحيله، دون التخلي عن الكفاح المسلّح. كرر القول دائماً (الصورة التي قدمها في الأمم المتحدة) عن ضرورة حمل غصن زيتون في يد، إلى جانب البندقية في اليد الثانية. كما أنني لا أرى أي أوراق رابحة، قد تتفاوض بشأنها السلطة الفلسطينية الحالية. فقد استسلمت كلياً لإسرائيل، بحيث لا تكفّ عن «إدانة العنف». بإمكان إسرائيل اليوم الدفاع عن استمرارية أبدية لتلك «المفاوضات» الذائعة الصيت. في المقابل، سيتواصل الجحيم اليومي للفلسطينيين، كما يفرضه عليهم الجيش الصهيوني. الخاسرون أيضاً في مقام آخر، هاته الحكومات العربية التي رأت الهوة تزداد بينها وشعوبها؛ إلا أن هذا الوضع ليس جديداً، ولا يستحق حتى مجرد التكلم عليه.

إذا فحصنا، من الجانب الآخر، دفتر الرابحين، أظن أن الشعب الفلسطيني أكبر منتصر. إنه شعب عظيم، أعطى دائماً صوراً حيّة عن البطولات والشجاعة. لقد حيّته كل أمم الكون، ونزلت بالملايين إلى شوارع عواصم العالم (أشير إلى ما لا يقل عن أربع مظاهرات في باريس، وكذا العديد من مدن المقاطعات الفرنسية).

بعد هذا، نتحدث عن اليسار العالمي، وأخصّ بالاستشهاد المواقف العظيمة لهوغو تشافيز (Hugo Chavez) وإيفو موراليس (Uvo Morales). لقد اهتزّت أمريكا اللاتينية اليسارية لدعم الفلسطينيين في صراعهم، وإعطاء الدليل عن التقليد اليساري الماركسي المتعلق بالتضامن العالمي. لقد ابتسمت وسعدت جداً، وأنا أصادف في صفحة منبر جريدة **القدس** أصواتاً تنادي بنقل مقرّ جامعة الدول العربية من القاهرة إلى كاراكاس! تأثرت أيضاً عند رؤيتي للجماهير الفلسطينية، وهي تلوح عالياً بصور عرفات وتشافيز جنباً إلى

جنب. سيشعر عرفات بالسعادة لو كان على قيد الحياة، حينما يرى نفسه بصحبة هذا الرجل الاستثنائي. لقد كان عرفات في عصره أحد الثوار العالميين الكبار من حجم مانديلا وهو شي منه (Ho Chi Minh). كذلك، وعلى خلاف مما استخلصه كثير من المفكّرين، فقد خرجت مصر قوية من هذا الاختيار. أقول للذين أدانوها! انظروا إلى ما فعله الآخرون! على الأقل استراتيجية مصر واضحة جداً، تختصرها في ما يلي: لا يمكننا القيام بالحرب، فلندافع عن السلام! وقد نجحت بذلك، بحسب ظني. لقد تجلّت الدبلوماسية المصرية، كمحاور للعالم أجمع، وممتلكة لأسرار الحلّ.

في ما يخص حماس، في رأيي، قدمت الفرصة لإسرائيل كي ترتكب جريمة أخرى دون مكسب سياسي كبير. حقاً، كشفت عناصر حماس عن مهارة عسكرية، ولم تنهر، كما حدث مع الجيش العراقي، ولهم اليوم الحق في التحدّث عن تحقيقهم لانتصار عسكري صغير. إلا أن السؤال: بأي ثمن؟ ١٣٠٠ شهيد، آلاف الجرحى، وتحطيم ضخم للبنية التحتية الهشّة والضعيفة... إلخ. ثم ما هي النتيجة؟ ستواصل إسرائيل حصارها، واستمرار معاناة العائلات الفلسطينية بعد فقدهم للعديد من الرجال والنساء والجرحى... أمام كل ذلك، يطرح السؤال الكبير التالي: ما هي خطة حماس؟ تنظيم ولد تحت أعين إسرائيل وأمريكا، بهدف إضعاف منظمة التحرير الفلسطينية، وتقسيم الفلسطينيين في جميع الأحوال. فهي تحقق آنيا بالضبط المخطط الذي رُسم لها أصلاً من طرف إسرائيل وأمريكا، حيث أوصلت المقاومة الفلسطينية إلى أخطر تقسيم لم تعرفه منذ أربعين سنة. باسم ماذا؟ المزايدة على اتفاقيات أوسلو، كما لو أن منظمة التحرير وقّعت عليها كي تسعد الصهاينة. ما هو الخيار الذي تقدمه حماس؟ لا نعرف أبداً. في الحقيقة، ستعيد السيناريو نفسه، الذي حدّد خطوات منظمة التحرير الفلسطينية منذ أربعين سنة، منتهية حتماً عند الطريق المسدود نفسه. ربما تضطر إلى الجلوس إلى طاولة المفاوضات! وقد تقوم بما يقوم به اليوم رئيس السلطة، أي إدانة «العنف أياً كان مصدره» □